جهود الخلافة للتحرر من النفوذ السلجوقي خلال القرن السادس الهجري

دراسة

د. نافع توفيق العبود

كلية الاداب / جامعة بغداد

اصل السلاجقة ودخولهم العراق:

نرى من المناسب ان نعرض - بايجاز - في هذا البحث، الى التعريف بالسلاجقة وظهور نفوذهم السياسي في المشرق، ومن ثم توسعهم ودخولهم العراق في سنة ٤٤٧هـ.

عرف السلاجقة بهذا الاسم، نسبة الى سلجوق بن تُقاق احد رؤساء الاتراك الغزّ الذين كانوا يقطنون بلاد ما وراء النهر، في مكان يبعد عن بخارىٰ بعشرين فرسخاً. ولم يكن السلاجقة من الأمم العريقة في الحضارة والسياسة، بل كانوا «بُداةً لاعلم لهم باخبار الملوك ومآثرهم»[١] وكان عددهم يُجِلُّ عن الحصر والاحصاء[٢].

بدأ نفوذ هؤلاء السلاجقة السياسي يظهر سريعاً منذ أيام زعيمهم تُقاق والد سلجوق، فانقادوا الى طاعته، فاعتضد بهم وتقوّىٰ أمره، فصارت له كلمة عليا بين الأتراك الغزّية، حتى اننا نراه يعارض رأي ملكهم (يَبْغُو) في غزو العالم الاسلامي ويثنيه عن عزمه بعد مشادة وقعت بينهما[٣].

أنجب تُقاق ابنه سلجوق، فنشأ الابن واشتد عوده، فكان عالي الهمة، حسن التدبير، فتمكن بعلوهمته وطموحه من التقرب الى ملك الترك الذي اسند اليه مهمة قيادة الجيش، فاستطاع بسياسته من استمالة عدد من رجال الدولة اليه، فَحَذَّرَتْه زوجة الملك وحرّضت زوجها على قتله بعد ان اخذ امره يزداد علواً.[٤]

ولما علم سلجوق بالتدبير السيّئ على حياته، فتحول «من دار الحرب الى دار السلام»، فاسلم وحسن اسلامه، وصار على رأس جماعة تؤيده وتطيعه. وقرر الاقامة بمن معه من اصحابه في نواحي جَنْد القريبة من بخارىٰ، وهناك وجد امامه متسعاً للجهاد ضد الكفار، فصار يشن غارات متصلة على كفار الترك، وكان ملك هؤلاء يأخذ الخراج من المسلمين الموجودين في تلك الديار، وتمكن سلجوق من طرد عمال الملك منها وصفت للمسلمين[٥].

وهكذا علت كلمة سلجوق في بلاد ما وراء النهر، وتنبه السامانيون الى أمره، فاستنجدوا به لمساعدتهم على رد ما اخذ الترك من بلادهم، ولم يتردد سلجوق في اسداء المساعدة لهم، فأمدهم بابنه ارسلان الذي سيره على راس جيش استرد ما اخذه الاتراك.

توفي سلجوق بجند بعد ان بلغ من العمر عتياً، وخلّف ثلاثة اولاد، تقلبت بهم الاحوال - مما لا مجال لذكره تفصيلاً في هذا البحث - غير ان الذي يهمنا ان زعامة السلاجقة لم تخرج عن

عائلة سلجوق، بل ظلت في اعقابه، الذين لم يتوانوا في مد نفوذهم والتوسع على حساب القوىٰ المجاورة لهم، فما كاد الثلث الاول من القرن الخامس الهجري ينقضي حتى استولوا، وبخاصة ايام سلطانهم طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق، على خراسان وجرجان ومكران وبلاد الديلم وغيرها من اقاليم المشرق الاسلامي[٦]. ولاشك فان استيلاءهم على هذه الاقاليم الواسعة، كان بعد منازعات طويلة وحروب متواصلة، خاضوا غمارها مع القوىٰ الاخرىٰ وفي مقدمتها الغزنويين الذين حاولوا الحد من تزايد نفوذهم، ولكن من غير جدوى[٧].

وازاء هذا التوسع السلجوقي الذي شارف ممتلكات الخلافة العباسية، قرر الخليفة القائم بامر الله، الاتصال بالسلطان طغرلبك السلجوقي لمساعدته في ابعاد التسلط البويهي الغاشم الذي أنّت الخلافة من وقعه طويلاً. وكان النفوذ البويهي الدخيل يسير بخطى سريعة نحو التداعي بسبب ما كان يلقاه من مقاومة عربية في العراق[٨]، وليس ادل على ذلك من ضعف أمر آخر حكام البويهيين، وهو الملك الرحيم، وعلو كلمة القائد التركي أبو الحارث البساسيري، الذي راح يلوّح باستدعاء المستنصر بالله الفاطمي، وكان قد خطب له فعلاً[٩]. لأسباب سياسية معروفة.

لقد لبّىٰ السلطان السلجوقي طغرلبك طلب الخليفة القائم واظهر العبودية والطاعة له، وبعد قليل أمر الخليفة المذكور بذكر اسم طغرلبك في الخطبة ونقشه على السكة قبل اسم السلطان البويهي الملك الرحيم. وذلك في يوم الجمعة لثمان بقين من شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ. ثم ارسل طغرلبك رسولاً يستأذن الخليفة في دخول بغداد فاذن له فدخلها لخمس بقين من الشهر المذكور، فلما بلغ النهروان خرج موكب كبير لاستقباله ضم الوزير رئيس الرؤساء والقضاة والنقباء والاشراف واعيان الدولة[١٠].. وبدخول السلطان طغرل بغداد، اصبح العراق تحت الحكم السلجوقي.

وفي سنة ٤٥٠هـ، تمرد البساسيري القائد التركي في العراق وقطع الخطبة عن الخليفة العباسي وخطب للفاطمي بمصر، ثم نقل الخليفة القائم بامر الله الىٰ حديثة عانة.. وكتب الخليفة الى طغرلبك يستدعيه الى بغداد لينصره على البساسيري، فعاد طغرلبك الى العراق وقتل البساسيري في السنة المذكورة[١١].

سياستهم الجائرة في العراق:

ابدىٰ السلاجقة الدخلاء سياسة خرقاء لاتختلف في نهجها عن سياسته سالفيهم البويهيين، فمع انهم ابدوا بادئ الامر احترامهم للخلفاء واعادوا للخلافة العباسية شيئاً من هيبتها، الا انهم سرعان ماعادوا واستأثروا بالسلطة الفعلية، وجردوا الخلفاء من سلطاتهم الدنيوية، وخصصوا لهم اقطاعات مقررة يديرها عمال على رأسهم الوزير وكاتب الانشاء، كما كانت الحال في ايام بني بويه. ولم يبق للخلفاء العباسيين سوىٰ ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة.

كان التسلط السلجوقي ثقيلاً على الخلافة بعد ان صار لهم الأمر والنهي، فلم تحسّ الرعية في زمانهم راحة او أمناً لكثرة المنازعات والحروب بين سلاطينهم على الملك، وكانت هذه الحروب تطحن بعضهم بعضاً فيئن الناس من وقعها أنيناً، فتأخر العراق في زمانهم سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، وقاسىٰ الناس من الجور والعسف ضروباً من النكبات والمآسي، فكثيراً ما كان جنودهم ينهبون القرىٰ والضياع وغيرها، ويطلقون ايديهم في اموال الناس ومساكنهم، يضاف الى هذا اشتطاطهم في زيادة الضرائب والمكوس التي اثقلت كواهل الناس[١٢].

وبسبب سياستهم وتصرفاتهم السيئة هذه، اهملت الزراعة وحدث جفاف الانهار، وانعدام الغلات وقلة الاقوات، وتفشي الجهل والامراض وشيوع الشلل والاضطراب في مرافق الحياة العامة المختلفة[١٣].

ومع ان بعض سلاطين السلاّجقة تصاهروا مع الخلفاء العباسيين، الا ان هذه المصاهرات لم تحل دون قيام صراع مستمر بين الخلفاء وسلاطينهم، لأن السلاطين يريدون من الخليفة الا يدخّل نفسه في غير امور الدين[١٤]، وان يبقىٰ موظف يتلقىٰ الاوامر من سلطان السلاجقة. وعلى هذا الاساس كان في بغداد ابان السيطرة السلجوقية الغاشمة سلطتان: سلطة الخليفة العباسي التي كانت ضعيفة واهية، وسلطة السلطان السلجوقي، وهي القوة الحقيقية المؤثرة.

ويمكن تصور العلاقة بين الخليفة وسلاطين السلاجقة من قول العماد الاصفهاني «وكان اهون ما عندهم (سلاطين

السلاجقة) خلاف الخليفة وعناده، وتمردهم عليه بان يحصل مرادهم لامراده. . . ولهم مطالب من الديوان العزيز لايفي بها خواصه، ومغارم تلحقهمنهم، يتعسر منها خلاصه. . . والحرم من جناياتهم خائف، والشرف لمهاباتهم عائف، وشريعة الشريعة مكدرة، والدماء والفروج مستباحة مهدرة، والخليفة يغضي ويغضب، ويعتب ولايعتب، ويقدر عليه ولايقدر ويغدر به وهو على العهد لايغدر»[١٥].

وكان الخليفة المغلوب على أمره، لايتحرج من الخطبة ببغداد لسلطانين سلجوقيين في وقت واحد، وعلى وزير الخليفة ان ينال رضى السلطان والاّ عزل، وكما يعزل السلطان وزير الخليفة متى شاء، وكذلك له ان يأمر الخليفة باسناد وزارته الى من يحب ويرتضي تبعاً لهواه.

ونتيجة لهذا كله، صار اصحاب السلطان ورجالاته هم المتنفذون فعلياً، وليس لأحد ان يقف في وجوههم، وصارت اوامر الخليفة ونواهيه حبراً على ورق.

الخليفة المسترشد بالله يستهل سياسة التحرر من السلاجقة:

وازاء الحال التي آلت اليها أمور الخلافة من استلاب السلاجقة لسلطانها الدنيوي، فان سلطة الخليفة المعنوية وشرعية حكمه كبيرة، وبخاصة في نفوس اولئك البعيدين عن بغداد، الذين ظلوا ينظرون الى مقام الخليفة باحترام باعتباره خليفة المسلمين أي الرئيس الأعلى لهم[١٦]، وان كانت دولته قد باتت قليلة البلاد.

ومن هنا نجد الخلافة العباسية ترفض استسلامها لعوامل الوهن والضعف وتهب مدافعة عن كيانها وحرمتها، واسترداد سلطانها المسلوب، حتى قُدّر لها ان تنهض من كبوتها وتناضل لتوكيد مكانتها في النفوس، وكان سلطانها الروحي من امضى الاسلحة التي استخدمتها في سبيل نيل الاستقلال والتحرر من الهيمنة السلجوقية الاجنبية.

ولهذا شهد العصر السلجوقي محاولات جادة وصادقة لانهاض الخلافة واعادة هيبتها، بالتحرر من ربقة السيطرة السلجوقية، والحصول على الاستقلال، واهم هذه المحاولات، محاولة الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ) التي اودت بحياته بعد ان دوّخ السلاجقة واضعف من شأنهم، وجعل من حياته سياجاً حمى به كرامة الخلافة، ورسم بدمه طريقاً لخلفائه من بعده.

لقد قامت الوحشة بين الخليفة المسترشد والسلطان السلجوقي مسعودبن محمد بن ملكشاه، فعزم الخليفة على تحرير الخلافة، فخرج في سنة ٥٢٩هـ على رأس جيش يقوده بنفسه لمحاربة مسعود الذي كان في همذان، وخرج مع الخليفة أيضاً، أعيان دولته منهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبيّ وقاضي القضاة وصاحب المخزن والخطباء والفقهاء وغيرهم. . واسفرت المعركة التي دارت في العاشر من رمضان من السنة المذكورة، عن هزيمة عسكر الخلافة واسر الخليفة نفسه مع اكابر دولته، ثم دس مسعود جماعة من الباطنية فقتلوه غدراً وخسة، ولما بلغ ذلك الى بغداد، ثار جماعة من عامتها، ومنعوا الخطبة لمسعود، ثم خرجوا الى الاسواق يَحثُون التراب على رؤوسهم ويبكون ويصيحون كما خرجت النساء حاسرات في الاسواق يلطمن، واقتتل اصحاب الشحنة وعامة بغداد، فقتل من العامة ما يزيد على مائة وخمسين قتيلاً[١٧].

الخليفة الراشد بالله يواصل مناوأة النفوذ السلجوقي:

لابد لنا أن ننوه بالدور الذي قام به هذا الخليفة في مقارعة السلاجقة، وغذّه السير على نهج سياسة والده المسترشد بالله لتحرير الخلافة ونيل الاستقلال الناجز، وابعاد اي نفوذ سلجوقي عنها.

كان الراشد ولياً للعهد، فلما قتل ابوه جددت البيعة له في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ، وكتب السلطان مسعود الى شحنة بغداد بالبيعة له، وحضر بيعته واحد وعشرون من اولاد الخلفاء[١٨].

لم يكن السلطان مسعود اسعد حظاً مع الراشد بالله من ابيه المسترشد، كما ان الراشد نفسه لم يكن بمستوى الاحداث التي تحيط بالخلافة، ويبدو ان السلاجقة قدروا ذلك فيه[١٩].

وضع الخليفة الراشد لنفسه سياسة تقوم على مناوأة السلاجقة وابعادهم، وقامت سياسته على الاخذ بثأر والده اولاً،

وثلّ سلطنة مسعود السلجوقي ثانياً، ولتحقيق هذين الهدفين، فانه اتفق مع داود بن السلطان محمود (اخو مسعود) ومع كثير من امراء الاطراف على مقاومة مسعود وخلعه، الا انه لم يوفق الى وضع خطة سياسية وعسكرية يستهدي بها، كما انه لم يتمكن من التوفيق بين رغبات من اجتمع حوله ومصلحة الخلافة، إذ ما ان بلغ السلطان مسعود ما اعتزم عليه الخليفة الراشد واعوانه، حتىٰ فارق همذان واقبل مسرعاً صوب بغداد، فلما شارفها أمر بحصارها فحوصرت لامتناع الخليفة واعوانه بها، وسرعان ما اختلفت كلمة الامراء الذين حالفوا الخليفة وتفرقوا عنه، تاركين بغداد، وكان من بين حلفاء الخليفة واكبرهم شأناً عماد الدين زنكي وداود بن السلطان محمود وغيرهما، فانهم جميعاً تفرقت كلمتهم وخذلوا الخليفة[٢٠].

وازاء هذا الموقف المتحرج، اثبت الخليفة الراشد ومن معه عجزهم في الدفاع عن حاضرة الخلافة، بل انهم وضعوا انفسهم في حصار اختاروه بارادتهم حينما اطبقت عليهم قوات مسعود السلجوقي، كما انهم اخطأوا عسكرياً حينما سدوا بعض ابواب السور لئلا يهرب بعض الجيش الذي كان معهم، اعتقاداً منهم بانه ينضم الى السلطان السلجوقي[٢١]. وكان من نتيجة ذلك ان ثبطت عزيمة الامراء، كما عملت وسائل مسعود على تفرقة كلمتهم، في حين آثر الخليفة الاحتماء بزنكي، وارتحل الى الموصل، ولكنه لم يستقر بها، لانحراف زنكي عنه بتأثير مسعود، فخرج من الموصل هائماً على وجهه في قلة من اصحابه حتىٰ استقر به المقام في اصبهان حيث لقي حتفه على يد جماعة من الباطنية، وذلك في سنة ٥٣٢هـ، ولا يستبعد ان يكون وراء قتله خطّة مسعودية[٢٢].

الخليفة المقتفي واستكمال تحرير العراق من السلاجقة:

تسنم الخلافة بعد الراشد عمه المقتفي لامر الله، وذكر ان السلطان مسعود لم يبايعه بالخلافة حتىٰ شرط عليه الا يكون معه خيلٌ ولا آلة سفر الّا ما يحتاجه لركوب نفسه لاغير[٢٣]، لابقائه ضعيفاً مجرداً من القوة والسلطان، حتىٰ لايعيد مع السلاجقة ما فعله المسترشد، وابنه الراشد. واكثر من هذا فقد تطاول السلطان مسعود على جميع ما كان في دار الخلافة من مركوب واثاث وذهب وفضة. ثم انه ضيق علىٰ الناس وفرض عليهم اموالاً كبيرة، وحمّلهم ما يطيقون وما لايطيقون.

ومع هذه الاجراءات التعسفية التي ابداها السلطان السلجوقي، فان الخليفة المقتفي لامر الله لم يستكن ازاء اجراءات السلاجقة وتماديهم بحق الخلافة وازدرائهم لها، بل انه ظلّ يتحيّن الظروف المواتية للايقاع بهم والتخلص منهم، متوسلاً بسلطانه الروحي وشرعية خلافته للحد من تجاوزهم وفرضهم الأموال على الخلافة والناس معاً، فكتب الى السلطان مسعود قائلاً له:

«ما اعجب من امرك!! انك تعلم ان المسترشد سار اليك بامواله، فجرىٰ ما جرىٰ وعاد اصحابه عراة، وولي الراشد ففعل ما فعل، ثم رحل واخذ ما بقي من الأموال، ولم يبق في الدار سوى الأثاث فاخذته جميعاً... واخذت التركات والجوالي. فمن اي وجه نقيم لك هذا المال؟ وما بقي الا ان نخرج من الدار ونسلّمها لك، فاني عاهدت الله ان لاآخذ من المسلمين حبّة واحدة ظلماً»[٢٤].

قصد الخليفة المقتفي بكتابه هذا إلفات نظر مسعود الى العجز المالي الذي تعانيه خزينة الدولة، جراء الاحداث التي ارتكبها السلاجقة بحق الخلافة، واستحواذهم علىٰ الكثير من اموالها واموال الناس، وأكدّ له انه - كخليفة - سوف لايحمّل الرعية اكثر من الشيء الذي تحمله ظلماً اشباعاً لرغبة مسعود واسرته السلجوقية.

وتريث الخليفة في الاقدام على الدخول في نزاع مباشر مع السلطان مسعود، لئلا يضطر الى اتخاذ موقف ليس في صالحه، فاستغل مصاهرته للسلطان مسعود وارسل عمالاً الى بعض البلاد دون مشاورة وزيره ابن طرّاد الزينبي الذي كان امره نافذاً في دولتي الخلافة والسلاجقة، فلما انزعج الوزير من ذلك، تخلّىٰ السلطان عنه، لأنه آثر الحرص على ارضاء صهره الخليفة بدلاً من ارضاء الوزير المذكور. فتخلص الخليفة بذلك من عين من عيون السلطان عليه[٢٥]. كما استغلّ تسوية النزاع بين السلطان مسعود وعماد الدين زنكي صاحب الموصل، فارسل رسولاً الى زنكي وأقره على ولايته، واستثنىٰ من إقطاعه منطقة (صريفين) في بغداد ليضمن وقوفه الى جانبه في حالة نزاعه المرتقب مع مسعود، الذي كان يدبر له ويتحين الفرصة المواتية للتخلص منه ومن

السلاجقة.

واستمر المقتفي لأمر الله يرقب الأحداث، حتىٰ اذا ما عاود السلاجقة انقساماتهم ونزاعاتهم التقليدية بسبب السلطنة، سعىٰ لاسترجاع شيْ من حقوق الخلافة المغتصبة وهيبتها المسلوبة، وصادف ذلك تململ الأتابكة والأمراء ضد السلطان مسعود متخذين من أبناء محمود ستاراً يحتمون به، ودخل جماعة منهم بغداد في سنة ٥٤٣هـ، بحجة تأييد محمد شاه بن محمود، ولكنهم اساءوا التصرف مع الناس لغلظة طباعهم ووعورة اخلاقهم، فضجّ الناس من تصرفاتهم وضاقوا بها ذرعاً، وحينذاك كتب الخليفة الى مسعود يبينّ له اضطراب الحال وهروب الشحنة وامير الحاج الى تكريت ومحاصرة العسكر لبغداد. فلما وقف مسعود على ذلك، كتب الى الخليفة المقتفي يأذن له ان يجنّد عسكراً ويحتاط لنفسه وللمسلمين[٢٦].

وهنا وجد الخليفة المقتفي ان الفرصة مواتية امامه لاعداد جيش خلافي يحفظ للخلافة حرمتها وللدولة كرامتها، بلْ وليعمل علىٰ تحرير العراق كله من السيطرة السلجوقية، وهذا ماكان قد عزم عليه، إذ باشر على إثر ذلك الإذن بتجنيد الجند وتحصين بغداد بالخنادق، ودعا الناس للدفاع عن ارواحهم وأموالهم، وفي الوقت نفسه ارسل الىٰ الأمراء الخارجين يدعوهم الىٰ الهدوء والسكينة، فاستجاب له الكثيرون، ورتب الولاة في الولايات[٢٧].

وبعد هذه الاجراءات، عمد الى اعادة هيبة الوزارة، فاستوزر وزيراً قوياً، وهو ابو المظفر عون الدين بن هبيرة الذي كان «من خيار الوزراء وعلمائهم»[٢٨] وكانت له يدٌ قوية وحيل مرضية في قمع السلجوقية[٢٩]. وقد شدّ هذا الوزير العربي الوفّي على يد سيده الخليفة المقتفي التي شمرّها لتحرير الخلافة من نير السلاجقة واستبدادهم.

ومع اطمئنان الخليفة الى قوته المتنامية في بغداد، فإنه ارجأ قطع صلته بالسلطان مسعود السلجوقي الى حين انتظاراً للفرصة المناسبة، مع انه علىٰ دراية بضعف مسعود واضطراب امور سلطنته بسبب تمرد الأمراء عليه، ولعل المقتفي كان قد ادرك ان مسعوداً لايمثل القوة الحقيقية للسلاجقة، وعمه سنجر (سلطان المشرق) على قيد الحياة، لذلك استمر محتفظاً بصداقة مسعود ظاهراً، متخذاً إيّاه ستاراً يقي به الخلافة من السلاجقة الآخرين الطامعين، فضلا عن عدم اطمئنانه الى الأمراء الذين جاهروا بعدائهم لمسعود.

وفي سنة ٥٤٧هـ مات السلطان مسعود «وماتت معه سعادة البيت السلجوقي ولم تقم له بعد راية يُعتدّ بها أوْ يلتفت اليها»[٣٠] ولما بلغ خبر موته الى الخليفة المقتفي لأمر الله قال «لاصبر علىٰ الضيم بعد اليوم ولا قوام مع هول هؤلاء القوم»[٣١]. وجدد نشاطه لاستكمال سيادة الخلافة وتعزيز مكانتها في النفوس، فاستولىٰ على مخلفات الشحنة الذي هرب الىٰ تكريت، وقبض على ما كان في دار السلطان، ثم جمع الرجال والعساكر فقوي امره، واستطاع ان يبسط نفوذه على واسط والحلة، ويوطد استقلال العراق شيئاً فشيئاً.

ثم تشجع المقتفي لأمر الله على ملاحقة السلاجقة واستئصال شأفتهم وطردهم نهائياً من العراق وتحريره منهم، وبخاصة حينما بلغته انباء هزيمة اقواهم، وهو السلطان سنجر الذي اندحر امام الغزالاتراك عندما خرج لمحاربتهم حيث اسروه في سنة ٥٤٨هـ[٣٢]، فارسل الخليفة جيشاً الى تكريت، ثم سار بنفسه اليها وحاصرها، ولم تجد محاولات السلاجقة اليائسة في فرض محمدبن محمود سلطاناً ليعود الى التحكم بامور الخلافة، كما كان يفعل سالفوه، وذهبت محاولاتهم سدى في هذا الاتجاه، فحينما زحفوا الى بغداد لتحقيق مأربهم الخبيث، تصدت لهم جيوش الخلافة فهزمتهم عند نهر بكَمْزا قرب بعقوبا[٣٣].

ولم يكف الخليفة المقتفي عن ملاحقة محمد بن محمود السلجوقي الذي جمّع حوله معظم امرائه. وكان ينادي بالسلطنة لنفسه، حتى انه تجرّأ فسار على رأس عساكره من همذان صوب بغداد فحاصرها في سنة ٥٥١هـ، فلجأ الخليفة الى احباط محاولته عن طريق بث الفرقة بين امراء محمد بن محمود، فأغرىٰ بعضهم ببعض فتبطت عزيمتهم وتفرق شملهم، ونجح الخليفة في مسعاه، ولم يقو محمد السلجوقي على مواصلة الحصار الذي ضربه على بغداد مدة اكثر من ثلاثة اشهر، بسبب صمود جيش الخلافة والناس صموداً رائعاً، فاضطر الى الانسحاب خائباً[٣٤]، فحافظ العراق علىٰ استقلاله وتحرر من الهيمنة السلجوقية الدخيلة التي ناءت بثقلها عليه مدة قرن من الزمان، ولم يعد للسلاجقة أي نفوذ عليه ولم تدنس اقدامهم ارضه الطاهرة بعد ذلك التاريخ.

انتعاش الخلافة :

لابد من القول ان الخلافة العباسية رغم استعادتها هيبتها واستقلالها، بتحررها من السلاجقة الدخلاء، بفضل السياسة التي استهلها المسترشد بالله وتابعه فيها ابنه الراشد، ثم المقتفي لامر الله، الا ان الخلافة لم تبدِ نشاطاً اكثر في تقوية نفوذها وسلطانها على ما كانت عليه سالفاً. ذلك ان المستنجد بالله (٥٥٥ ـ ٥٦٦هـ) رغم سيرته العادلة مع الرعية، فانه آثر العزلة حتى عن افراد اسرته، واهمل ادارة البلاد ومراقبة العمال. وظل على هذه السياسة حتىٰ سنة ٥٦٦هـ، حيث لقي مصرعه وهو مريض على يد احد كبار المماليك واستاذ الدار عضد الدين أبي الفرج رئيس الرؤساء[٣٥]، الأمر الذي يدلل على عجزه في تسيير امور الدولة وسوء اختياره للمحيطين به.

لقد بايع قاتلا المستنجد ابنه ابا محمد الحسن بالخلافة ولقباه (المستضئ بامر الله) وشرطا عليه ان يكون استاذ الدار عضد الدين وابنه كمال الدين استاذ الدار والمملوك قطب الدين قايماز أمير العسكر، فنزل عند ارادتهم واجابهم على ذلك[٣٦].

كان المستضئ ليناً متديناً، وفي زمانه قطعت خطبة العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر من قبل صلاح الدين الايوبي وذلك في سنة ٥٦٧هـ وخطب له بمصر. وعمّ الفرح والجذل بغداد وعظمت هيبة الخلافة[٣٧]، غير ان المستضئ رغم حسن سيرته في الرعية الذين كانوا «معه في امن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون» فانه احتجب عن اكثر الناس، وبلغ من اعتزاله ان دار الخلافة حوصرت ذات مرة واغلقت ابوابها، وهو لايعرف عن ذلك شيئاً[٣٨].

الخليفة الناصرلدين الله والقضاء على سلاجقة همذان :

توفي المستضئ بامر الله سنة ٥٧٥هـ، وخلفه ابنه الناصرلدين الله الذي دامت خلافته سبع واربعين سنة. ويعد هذا الخليفة القوىٰ خليفة عباسي منذ بدأ تدخل الأتراك في امور الدولة، لانه أعاد للخلافة هيبتها وحشمتها، وقمع الوزراء والأمراء المتمردين والمخالفين، فارتفعت كلمته وارادته وكان شجاعاً جريئاً.

ظن الخليفة الناصرلدين الله انه يستطيع النهوض بدولته والعمل على توسيع رقعتها، عندما شعر بضعف بقايا السلاجقة وانقسام دولتهم، فعمل علىٰ قطع دابر سلاطينهم[٣٩]، فلما ارسل السلطان طغرل بن ارسلان في سنة ٥٨٣هـ الى بغداد يطلب ان يتقدم الديوان بعمارة دار السلطنة ليسكنها إذا جاء بغداد، انكر عليه الناصرلدين الله الأمر غاية الانكار، ورد رسوله بغير جواب، وأمر بنقض دار السلطنة، فهدّمت الى الارض وعفّي اثرها[٤٠]، لإنه لايريد ان يعيد مأساة التسلط السلجوقي علىٰ الخلافة من جديد، وجاء نقضه لدار السلطنة التي تعدّ آخر رمز متبق من رموز السلاجقة، بمثابة القضاء النهائي على كل أمل للسلاجقة في العودة الى بغداد.

ثم أتبع الخليفة الناصر عمله بنقض دار السلطنة، بارسال وزيره جلال الدين أبي المظفر عبيد الله في سنة ٥٨٤هـ، بجيش كبير أعدّه لمحاربة السلطان طغرل السلجوقي، فالتقىٰ الجانبان قرب همذان، فكانت الغلبة لعسكر السلطان وهزيمة عسكر الخليفة[٤١].

ولكن هذا لم يثن عزم الخليفة الناصر لدين الله، بل جهز جيشه مرة ثانية في نفس السنة، وجعل المقدم عليه مجاهد الدين خالص الخالص، فانضم الى (قزل ارسلان) أتابك اذربيجان الذي طمع هو الآخر في السلطنة وحارب السلطان طغرل وسجنه في قلعة دزمار قرب تبريز، الا ان طغرل تمكن ان يهرب من السجن، فاستعاد نفوذه في همذان والري[٤٢]، فارجأ الخليفة محاربته في التخلص منه الى حين.

وهكذا اظهر الناصرلدين الله مقدرة كبيرة بتسييره لجيش الخلافة اكثر من مرة وخلال عام واحد لمحاربة السلاجقة، وليبرهن لهم ان المبادرة باتت في يد الخلافة التي تبدي اصراراً عنيداً علىٰ محاربتهم وملاحقتهم في آخر معقل متبق لهم بهمذان، وانها عقدت العزم على استئصال شأفتهم.

ومع ان الناصرلدين الله أرجأ محاربة السلاجقة الى وقت يختاره ويقدره مناسباً، فانه لم يتوان في توسيع رقعة الدولة العباسية، فملك قلعة تكريت في سنة ٥٨٥هـ، وتسلّم حديثة عانه بعد عام من التاريخ المذكور، وملك الأحواز سنة ٥٩٠هـ، ثم ارسل جيشاً سيطر على بلاد الري واصبهان وهمذان وغيرهما، مستغلاً ضعف الدولة السلجوقية، ووقوفها على شفا الانهيار.

وأخيراً ارتأى الخليفة الناصرلدين الله، الاتصال بالخوارزميين الذين ظهر نفوذهم بقوة في المشرق واستولوا على الكثير من ممتلكات السلاجقة، وظهر خطرهم على مقربة من سلطنة طغرل، فقرر الخليفة الاستعانة بهم للقضاء على السلطان المذكور، وهنا قرر خوارزم شاه علاء الدين تكش اجابة الخليفة الى طلبه، فسار على رأس جيشه للقاء سلطان السلاجقة، ودارت بين الجانبين معركة عنيفة بالقرب من الري في سنة ٥٩٠هـ[٣]، وحمل طغرل بنفسه وسط عسكر الخوارزميين، فاحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه، وقيل ان ابن عمه (قتلغ اينابخ) هو الذي قام بقتله وقطع رأسه[٤]، وحمله الى خوارزم شاه علاء الدين تكش الذي انفذه الى بغداد حيث علق بباب النوبي أياماً[٥]. فسرّ الخليفة الناصر بذلك غاية السرور، وسيّر الخلع السلطانية الى خوارزم شاه تكش مع وزيره مؤيد الدين ابن القصاب.

وهكذا عمل الخليفة الناصرلدين الله على انهاء السلاجقة في همذان، عن طريق خفيّ، هو الاستعانة عليهم بالخوارزميين الذين كانوا ألدّ أعدائهم. ومع اننا نرى اتفاق مصلحة الخلافة والخوارزميين في القضاء على السلطنة السلجوقية، الا ان ذلك الاتفاق لم يدم وقتاً طويلاً، فبينما اعتقد الخليفة الناصر أنه بلغ غايته بتخلصه من السلاجقة، وتصور ان بامكانه اقامة ملك شاسع على أنقاضهم، الا انه اساء التقدير، إذ سرعان ما تكشفت له الحقيقة المرة، وهي ان للخوارزميين مطامع في املاكه، وانهم لايقلّون خطراً على الخلافة من السلاجقة، وتجلى ذلك الخطر عند اخذ سلاطين الخوارزميين يطلبون اقامة الخطبة لهم من على منابر بغداد، وذكر اسمائهم الى جانب اسم الخليفة[٦]، فأبى الخليفة الناصر عليهم ذلك وانكره غاية الانكار، لانه لايريد ان يعيدذكرأي أعجمي الى جانب اسم الخليفة العربي، ومن هنا اشتد الخلاف بين الجانبين - مما لاسبيل لذكره في هذا البحث - وهذا في تقديرنا يفسر لنا السبب الذي جعل الخوارزميين لايعملون على تقوية مركز الخلافة بعد تخلصها من السلاجقة نهائياً، فكان ان اعقب ذلك استمرار العداء بين الجانبين، حتى لاح خطر المغول المتوحشين في الافق، فابتدأ بتحطيم الدولة الخوارزمية، ثم سار في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فاجتاح بغداد وازال الخلافة العباسية، فحلت بذلك اكبر كارثة اصابت العالم الاسلامي.

المصادر والهوامش

(١) النظام العروضي السمرقندي، چهار مقالة (المقالات الاربعة) الترجمة العربية: ٣٢.

(٢) ابن خلكان، وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان، تح محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة ١٩٤٨: ٤/١٥٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (دار صادر، بيروت، ٦٥-١٩٦٦: ٩/٤٧٣.

(٤) المصدر نفسه: ٩/٤٧٤.

(٥) المصدر نفسه: ٩/٤٧٤.

(٦) الدكتور حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣-١٩٦٧: ٤/٥.

(٧) الكرديزي، زين الأخبار (الترجمة العربية) تعريب محمد بن تاويت؛ فاس ١٩٧٢: ٢/١٠١، ١١٩-١٢١.

(٨) للتفاصيل عن هذا ينظر:
طالب جاسم حسن، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق والجزيرة الفراتية.
(رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الكاتبة - بغداد ١٩٨٦): ص١٤٩ فما بعد.

(٩) ابن الاثير، الكامل: ٩/٦٤٠-٦٤٣.

(١٠) المصدر نفسه: ٩/٦١٠.

(١١) المصدر نفسه: ٩/٦٤٩.

(١٢) عبد الكريم توفيق العبود، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد دار الحرية، بغداد، ١٩٧٦: ٢١.

(١٣) المرجع نفسه: ٢١-٢٢.

(١٤) ابن الاثير، الكامل: ١١/٤٢.

(١٥) عماد الدين محمد بن محمد الاصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق: اختصر اصل الكتاب الفتح بن علي البنداري، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت؛ ١٩٧٨: ٢١٦.

(١٦) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، بيروت ١٩٦٦: ٣٢.

(١٧) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والامم، حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٥٩: ١٠/٤٦. ابن الاثير، الكامل: ١١/٢٦.

(١٨) ابن الجوزي، المنتظم: ١٠/٥٠. ابن الاثير، الكامل: ١١/٢٦.

(١٩) د. محمد صالح داود القزاز، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير: مطبعة القضاء، النجف، ١٩٧١: ٥٣.

(٢٠) ابن الجوزي، المنتظم: ١٠/٥٥.

(٢١) القزاز، الحياة السياسية في العراق: ٥٤.
(٢٢) العماد الاصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق: ١٦٧. ابن دحية، النبراس في تاريخ بني العباس، مطبعة المعارف بغداد ١٩٤٦، ١٥٢.
(٢٣) ابن الجوزي، المنتظم: ١٠/٦١.
(٢٤) ن. م.: ١٠/٦٦.
(٢٥) ن. م.: ١٠/٨٥.
(٢٦) ن. م: ١٠/١٣١.
(٢٧) العماد الاصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق: ٢١٧.
(٢٨) السيوطي، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة: تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ط١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧، ٢/١٩٩.
(٢٩) ابن الطقطقي، الفخري في الاداب السلطانية: ٣١٢.
(٣٠) ابن الاثير، الكامل: ١١/١٦٠.
(٣١) العماد الاصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق: ٢١٦.
(٣٢) ابن الاثير، الكامل: ١١/١٨٠.
(٣٣) ن. م.: ١١/١٩٤-١٩٥.
(٣٤) ن. م.: ١١/٢١٢-٢١٥.
القزاز، الحياة السياسية في العراق: ٦١.
(٣٥) ابن الاثير، الكامل: ١١/٣٦٠. ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الاطباء، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٧٥: ٢/٢٦٥-٢٦٧.
(٣٦) ابن الاثير الكامل: ١١/٢٦. ابو الفدا، المختصر في اخبار البشر: دار الكتاب اللبناني: بيروت، ٥/٦٨.
(٣٧) عبدالكريم توفيق العبود، الشعر العربي في العراق: ٢٤.
(٣٨) ابن الجوزي، المنتظم: ١٠/٢٥٠-٢٥١. ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تح محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥١: ١/١٣٧-١٣٨.
(٣٩) ابن الكازروني ظهر الدين مختصر التاريخ من اول التاريخ الى منتهى دولة العباس، تح د. مصطفى جواد، مطبعة الحكومة بغداد، ١٩٧٠: ٢٤٥. الاربلي، خلاصة الذهب المسبوك. مختصر من سير الملوك ط٢، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٦٤، ٢٨١.
(٤٠) ابن الاثير، الكامل: ١١/٥٦٠. الذهبي، دول الاسلام ط٣، حيدر آباد الدكن ١٣٦٥هـ، ٢/٢٤٥.
(٤١) الحسيني صدر الدين بن ناصر، اخبار الدولة السلجوقية تح: محمد اقبال لاهور ١٩٣٣: ١٧٧. ابن الاثير، الكامل: ١٢/٢٤-٢٥.
(٤٢) الحسيني، اخبار الدولة السلجوقية: ١٩٠.
(٤٣) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، ترجمة د. ابراهيم امين الشواربي وزميليه، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠، ٥١٢-٥١٣.
(٤٤) ن. م: ٥١٣-٥١٤. ابن الفوطي، تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب، تح د. مصطفى جواد، دمشق ١٩٦٣-١٩٦٧: ٤/ق٢: ١٠٠٧.
(٤٥) ابن الاثير، الكامل: ١٢/١٠٨.
باب النوبي: احد ابواب دار الخلافة وكانت فيه العتبة التي يقبلها الرسل والأمراء والملوك ورؤساء الحجاج إذا قدموا بغداد.
ينظر:
(الدكتور مصطفى جواد، والدكتور أحمد سوسة، دليل خارطة بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد، ١٩٥٨، ١٥٨.
(٤٦) الدكتور نافع العبود، الدولة الخوارزمية: مطبعة الجامعة، بغداد ١٩٧٨، ٨٠-٨١.

* * *